

السياحة الثقافية وتثمين التراث الديني بالمغرب:

الزوايا بوصفها بنى محالية بين الوظيفة التاريخية ورهانات التنمية المعاصرة

د. عبد الرحيم الرامي

كلية الآداب والعلوم الانسانية-جامعة السلطان مولاي سليمان - بني ملال

a.rami@usms.ma

المملكة المغربية

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الزوايا المغربية باعتبارها فاعلاً تاريخياً ومجالياً في تشكل التراث الديني والثقافي، وتسعى إلى تحليل إمكانات إدماجها ضمن استراتيجيات السياحة الثقافية في سياق التحولات المحلية والتنمية الراهنة. وتنطلق من فرضية مفادها أن الزوايا لم تؤدّ وظيفة روحية محضة، بل اضطلعت عبر التاريخ بأدوار اجتماعية واقتصادية وتنظيمية أسهمت في هيكلة المجال المحلي وترسيخ الذاكرة الجماعية. وتعتمد الدراسة مقارنة تاريخية-تحليلية تستند إلى الوثائق الأرشيفية، والكتابات الأجنبية، وتحليل السياسات العمومية المرتبطة بتدبير التراث والسياحة الثقافية. وتبين النتائج أن تثمين الزوايا يقتضي مقارنة مندمجة تقوم على الحماية القانونية، وتعزيز الحكامة الترابية، وإشراك الفاعلين المحليين، بما يضمن التوازن بين صون البعد الروحي والهوية من جهة، وتحقيق مردودية تنمية مستدامة من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: السياحة الثقافية، تثمين التراث الديني، الزوايا المغربية، الحكامة الترابية، الرأسمال الرمزي، التنمية المحلية المستدامة.

Cultural Tourism and the Valorization of Religious Heritage in Morocco: Zawiyas as Spatial Structures between Historical Function and Contemporary Development Stakes

Abstract

formation of religious and cultural heritage. It explores their potential integration into contemporary cultural tourism strategies within the framework of ongoing territorial transformations. The central hypothesis argues that zawiyas historically operated not solely as spiritual institutions but also as territorial structures with social, economic, and organizational functions that contributed to local spatial organization and the consolidation of collective memory. The research adopts a historical-analytical approach based on archival sources, foreign writings, and an examination of public policies related to heritage management and cultural tourism. The findings indicate that sustainable valorization of zawiyas requires an integrated framework combining legal protection, territorial governance, and active local stakeholder participation, ensuring a balance between identity preservation and economic development.

Keywords: Cultural tourism, Religious heritage valorization, Moroccan Zawiyas, Territorial governance, Symbolic capital, Sustainable spatial development.

مقدمة:

شهدت العقود الأخيرة تحولاً نوعياً في تمثيلات التراث ووظائفه، إذ لم يعد يُنظر إليه باعتباره مخزوناً رمزياً أو بقايا مادية من الماضي فحسب، بل أصبح مورداً استراتيجياً ضمن ديناميات التنمية المستدامة والاقتصاد الثقافي وإعادة تشكيل الهويات المحلية¹. وفي هذا الإطار، برزت السياحة الثقافية كأحد أهم الآليات القادرة على تحويل الرأسمال الرمزي والتاريخي إلى قيمة اقتصادية واجتماعية، شريطة تأطير هذا التحويل ضمن مقاربة تحترم الخصوصيات الثقافية والروحية للمجالات المعنية².

ويكتسب هذا التحول أهمية خاصة في السياقات ذات العمق الحضاري والتنوع الديني، ومن بينها المغرب، الذي يتميز بتعدد مؤسساته الروحية وتراكمه التاريخي في مجال الدين المنظم، وفي مقدمة هذه المؤسسات الزوايا³. غير أن المقاربات السائدة في الأدبيات التاريخية والسوسيولوجية تناولت الزوايا غالباً من زاوية وظائفها الروحية أو أدوارها السياسية والاجتماعية، دون إدماجها ضمن تحليل استراتيجي معاصر يربط بين التراث الديني والسياحة الثقافية في إطار حكمة ترابية مندمجة⁴.

لقد شكّلت الزوايا عبر التاريخ المغربي بنيات متعددة الوظائف: فضاءات للتعليم الديني، وآليات للوساطة الاجتماعية، وشبكات للتضامن المحلي، وأحياناً فاعلاً مؤثراً في تنظيم المجال وضبط الموارد⁵. وبذلك لم تكن مجرد بنايات معمارية أو رموز صوفية، بل أسهمت في إنتاج المجال المحلي وإعادة توزيع السلطة الرمزية وترسيخ الذاكرة الجماعية⁶. غير أن التحولات التي عرفها المغرب منذ مطلع القرن العشرين، خاصة مع تشكل الدولة الحديثة وإعادة هيكلة الحقل الديني، أدت إلى إعادة تعريف أدوار هذه المؤسسات وحدود تأثيرها المحلي⁷.

في المقابل، تعرف السياسات العمومية المغربية خلال العقدين الأخيرين اهتماماً متزايداً بالسياحة الثقافية باعتبارها رافعة للتنمية المحلية وتعزيز الجاذبية الترابية⁸. إلا أن إدماج التراث الديني ضمن هذه الاستراتيجيات يظل مجالاً دقيقاً، نظراً لحساسية الفضاء المقدس، وإشكالية تحويله إلى مورد اقتصادي دون المساس بقيمته الرمزية ووظيفته الروحية⁹.

انطلاقاً من ذلك، يسعى هذا البحث إلى تجاوز المقاربة الوصفية للزوايا نحو تحليل وظيفي-مجالّي يربط بين تاريخ المؤسسة الزاوية وإمكانات تثمينها ضمن نموذج سياحي ثقافي مستدام. فالرهان لا يقتصر على إدراج الزوايا ضمن المسارات السياحية، بل يتعلق بإعادة التفكير في موقعها داخل هندسة التنمية الترابية، وبكيفية تحقيق توازن بين مقتضيات الحماية والصون من جهة، ومتطلبات الاستثمار الثقافي المسؤول من جهة أخرى.

1 - عبد الإله بلقزيز، الدولة والمجتمع: جدلية الاندماج والتفكك في الاجتماع العربي المعاصر (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008)، ص 112.

2 - أحمد بوحسن، السياحة الثقافية بالمغرب: الإمكانيات والتحديات (الرباط: منشورات وزارة الثقافة، 2014)، ص 57.

3 - محمد حجي، الزاوية الدلائلية ودورها الديني والعلمي والسياسي (الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة، 1964)، ص 23.

4 - عبد الكبير الخطيبي، الاسم العربي الجريح (الدار البيضاء: دار توبقال، 1980)، ص 89.

5 - محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر السعديين (الرباط: كلية الآداب، 1989)، ص 141.

6 - عبد الله حمودي، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة (الدار البيضاء: دار توبقال، 2001)، ص 66.

7 - محمد ضريف، الحقل الديني بالمغرب (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 1999)، ص 101.

8 - وزارة السياحة، رؤية 2020 للسياحة بالمغرب (الرباط، 2010)، ص 14.

9 - منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، السياحة والثقافة: شراكات من أجل التنمية المستدامة (باريس: اليونسكو، 2018)، ص 33.

وتكمن جدة هذه الدراسة في اعتماد مقارنة تركيبية تجمع بين:

- التحليل التاريخي المستند إلى الوثائق الأرشيفية والكتابات الأجنبية؛
- التحليل المجالي المرتبط بالتحويلات التراثية المعاصرة؛
- قراءة سياسات السياحة الثقافية في ضوء مقاربات الحكامة التراثية وتثمين التراث.

وعليه، تتمحور الإشكالية المركزية للدراسة حول السؤال التالي:

كيف يمكن إعادة إدماج الزوايا المغربية ضمن استراتيجيات السياحة الثقافية المعاصرة بما يحقق تثميناً مستداماً للتراث الديني، مع الحفاظ على وظيفتها الروحية وهويتها التاريخية؟

ويتفرع عن هذا السؤال جملة من التساؤلات الفرعية:

- ما حدود القابلية السياحية للفضاء الديني؟
- ما الشروط المؤسسية والقانونية الكفيلة بضمان تثمين متوازن؟
- كيف يمكن إشراك الفاعلين المحليين ضمن نموذج حكامه تشاركي؟

وما النموذج المجالي القادر على تحقيق الاستدامة دون إفراغ المجال من دلالاته الرمزية؟

تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن الزوايا تمتلك رأسماً تراثياً ورمزياً قابلاً للتثمين في إطار السياحة الثقافية، شريطة اعتماد مقارنة تشاركية قائمة على الحكامة التراثية والوعي بحساسية المجال الديني.

وتندرج هذه الدراسة ضمن النقاشات الدولية الراهنة المتعلقة بسياحة التراث الديني، والاقتصاد الثقافي، والحكامه التراثية، وتدير التراث في سياق الاستدامة، بما يتيح تقديم مساهمة نظرية وتطبيقية في آن واحد، واقتراح نموذج تحليلي قابل للتكييف مع سياقات مشابهة في الفضاءين الإسلامي والمتوسطي.

الفصل الأول: الإطار النظري والمفاهيمي والمنهجي

أولاً: الإطار النظري والمفاهيمي

يندرج هذا البحث ضمن تقاطع ثلاث حقول معرفية رئيسية: دراسات السياحة الثقافية، ومقاربات تثمين التراث وإدارته المستدامة، ونظريات الحكامة التراثية المرتبطة بدور المؤسسات الدينية في إنتاج المجال¹. ويهدف هذا التأطير النظري إلى تجاوز القراءة الكلاسيكية للزوايا باعتبارها فضاءات روحية منغلقة، والانتقال نحو تحليلها كبنىات مجالية تاريخية قابلة لإعادة الإدماج ضمن ديناميات التنمية التراثية المعاصرة².

1- السياحة الثقافية: من الزيارة إلى التجربة المجالية

شهد مفهوم السياحة الثقافية تحولاً دلالياً منذ سبعينيات القرن العشرين، حيث انتقل من التركيز على زيارة المعالم التاريخية والمتاحف إلى إدماج الممارسات اللامادية والطقوس والفضاءات ذات الحمولة الرمزية³. وتؤكد الأدبيات الحديثة أن السياحة الثقافية لم تعد قائمة على الاستهلاك البصري للموقع، بل على ما يُعرف بـ «التجربة» (Experience-based Tourism)، التي تقوم على التفاعل مع البعد الرمزي والهوياتي للمكان⁴.

في هذا السياق، يُنظر إلى السياحة الثقافية بوصفها:

- آلية لإعادة إنتاج الهوية المحلية⁵،
- أداة لإعادة تشكيل المجال⁶،
- مكوناً من مكونات الاقتصاد الإبداعي⁷.

غير أن إدماج الفضاءات الدينية ضمن هذا النموذج يثير إشكالية مركزية تتعلق بحدود تحويل المقدس إلى تجربة سياحية دون إفراغه من دلالاته الروحية⁸.

2- تثمين التراث: بين الحماية القانونية والتوظيف التنموي

ارتبط مفهوم تثمين التراث بالتحويلات التي عرفتها السياسات الثقافية الدولية في ظل تبني مقاربات التنمية المستدامة⁹. ولم يعد التراث يُحتزل في كونه موضوعاً للحماية القانونية، بل أصبح يُنظر إليه باعتباره:

- مورداً تنموياً،

1 - أحمد زايد، علم اجتماع الثقافة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2009)، ص 74.

2 - عبد الله حمودي، الشيخ والمريد (الدار البيضاء: دار توبقال، 2001)، ص 52.

3 - أحمد بوحسن، السياحة الثقافية بالمغرب (الرباط: وزارة الثقافة، 2014)، ص 33.

4 - Greg Richards, Cultural Tourism (London: Routledge, 2018), p. 45

5 - حسن أوريد، الهوية والحدثة (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2010)، ص 118.

6 - محمد شقير، التحولات المجالية بالمغرب (الرباط: منشورات الزمن، 2016)، ص 67.

7 - Françoise Benhamou, L'économie de la culture (Paris: La Découverte, 2012), p. 29.

8 - اليونسكو، السياحة والثقافة (باريس: اليونسكو، 2018)، ص 41.

9 - محمد سبيلا، الحدثة وما بعد الحدثة (الدار البيضاء: توبقال، 2007)، ص 144.

- أداة لتعزيز التماسك الاجتماعي،
- عنصراً من عناصر الجاذبية التراثية¹.

غير أن تأمين التراث الديني يطرح إشكالية مزدوجة: خطر التسليع (Commodification) من جهة، وخطر تفرغ الرمزية الروحية من جهة أخرى. ومن هنا برزت مقاربات الإدارة المتوازنة للتراث الديني، التي تقوم على إشراك الجماعات المحلية، واحترام الوظائف الشعائرية، وتحديد حدود الاستغلال السياحي².

3- التراث الديني بين المقدس والسوق

يُعد التراث الديني من أكثر أشكال التراث حساسية، نظراً لارتباطه بالهوية والإيمان والذاكرة الجماعية³. وتشير الأدبيات الدولية إلى ثلاثة نماذج رئيسية في التعامل مع هذا النوع من التراث:

1. نموذج الحماية الصارمة (Strict Preservation Model)

2. النموذج التجاري المكثف (Commercial Model)

3. النموذج التشاركي المستدام (Participatory Sustainable Model)

الذي يسعى إلى تحقيق توازن بين الحماية والتنمية⁴.

ويعتبر النموذج الثالث الأكثر انسجاماً مع مبادئ التنمية المستدامة، لكونه يسعى إلى تحقيق توازن بين حماية الرمزية الدينية، وتنشيط الاقتصاد المحلي، وضمان استمرارية الوظيفة الروحية للمؤسسة⁵.

4- الحكامة التراثية وإنتاج المجال

أعادت نظريات الحكامة التراثية تعريف المجال باعتباره فضاءاً للتفاعل بين الفاعلين وليس مجرد إطار جغرافي محايد⁶. فالمجال يُنتج من خلال شبكات العلاقات المؤسسية وتوزيع السلطة والموارد، وهو ما يتقاطع مع تصور المجال عند Henri Lefebvre بوصفه نتاجاً اجتماعياً⁷.

وفي ضوء هذا التصور، يمكن تحليل الزوايا باعتبارها:

- فاعلاً تراثياً تاريخياً⁸،

¹ - عبد الإله بلقزيز، الدولة والمجتمع (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008)، ص 119.

² - Benhamou, L'économie de la culture, p. 54

³ - اليونسكو، إدارة مواقع التراث العالمي (باريس: 2013)، ص 22.

⁴ - عبد الكبير الخطيبي، الاسم العربي الجريح (الدار البيضاء: توبقال، 1980)، ص 91.

⁵ - UNESCO, World Heritage Sustainable Tourism Programme (Paris, 2015), p. 17.

⁶ - محمد مدني، الحكامة التراثية بالمغرب (الرباط: منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية، 2015)، ص 36.

⁷ - Henri Lefebvre, La production de l'espace (Paris: Anthropos, 1974), p. 26

⁸ - محمد حجي، الزاوية الدلائمية (الرباط: دار المغرب للتأليف، 1964)، ص 48.

- بنية رمزية ساهمت في تنظيم المجال المحلي¹،
- مؤسسة وسيطة بين الدولة والمجتمع².

كما تلقت هذه المقاربة مع أطروحات الحكامة التشاركية في تدبير الموارد المحلية، كما بلورتها Elinor Ostrom، خاصة فيما يتعلق بإشراك الفاعلين المحليين في إدارة الموارد ذات الطابع الجماعي³.

5- الرأسمال الرمزي والاقتصاد الثقافي

تتيح مقارنة الرأسمال الرمزي، كما صاغها Pierre Bourdieu، فهم القيمة غير المادية للمؤسسات الدينية، التي لا تحتل في بنيتها المادية، بل تشمل الشرعية الاجتماعية، والاعتراف الجماعي⁴، والذاكرة المتراكمة. وفي هذا الإطار، يمكن اعتبار الزوايا رأسمالاً رمزياً ترايباً متراكماً عبر قرون، ما يجعلها قابلة للاندماج ضمن الاقتصاد الثقافي، شرط تجنب احتزالها في بعدها التجاري⁵.

6- موقع الدراسة ضمن الأدبيات الدولية

تكشف مراجعة الأدبيات أن معظم الدراسات حول السياحة الدينية ركزت على:

- الكنائس الأوروبية،
- المعابد الآسيوية،
- المواقع الحجاجية الكبرى⁶.

في حين ظل التراث الصوفي في شمال إفريقيا محدود الحضور في المحلات الدولية المصنفة، خاصة من زاوية التحليل المجالي-الانموي⁷. ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة، باعتبارها تسعى إلى سد فجوة معرفية من خلال تقديم حالة مغربية تربط بين البعد التاريخي والتحويلات التراثية المعاصرة.

خلاصة الإطار النظري

يتأسس البناء النظري لهذه الدراسة على أطروحة مفادها أن الزوايا ليست مجرد مؤسسات دينية تاريخية، بل تشكل رأسمالاً رمزياً-ترايباً قابلاً لإعادة التوظيف ضمن نموذج سياحة ثقافية مستدامة، شريطة اعتماد حكمة تشاركية تراعي حساسية المجال الروحي، وتوازن بين منطق الحماية ومنطق التنمية.

¹ - محمد المنوي، ورقات عن الحضارة المغربية (الرباط، 1989)، ص 153.

² - محمد ضريف، الحقل الديني بالمغرب (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 1999)، ص 87.

³ - Elinor Ostrom, *Governing the Commons* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), p. 90

⁴ - Pierre Bourdieu, *Langage et pouvoir symbolique* (Paris: Seuil, 2001), p. 170.

⁵ - Benhamou, *L'économie de la culture*, p. 62.

⁶ - Richards, *Cultural Tourism*, p. 88.

⁷ - Dale Eickelman, *Moroccan Islam* (Austin: University of Texas Press, 1976), p. 112

وبذلك يشكل هذا الإطار النظري الأساس التحليلي الذي سيتم من خلاله تفكيك العلاقة بين التاريخ المجالي للزوايا وإمكانات تميمها في السياق المغربي المعاصر.

ثانياً: المنهجية

1- تصميم البحث

تعتمد هذه الدراسة تصميمًا بحثيًا نوعيًا ذا طابع تحليلي-تركيب، يقوم على الجمع بين المقاربة التاريخية والتحليل المجالي وتحليل السياسات العمومية، في إطار قراءة تأويلية للتراث الديني¹. ويهدف هذا التصميم إلى تفكيك البنية التاريخية والمؤسسية للزوايا، ثم إعادة تركيبها تحليليًا ضمن سياق التحولات الترابية المعاصرة المرتبطة بالسياحة الثقافية².

وينسجم هذا الاختيار المنهجي مع طبيعة الإشكالية المطروحة، التي تقتضي الربط بين الامتداد التاريخي للمؤسسة الزاوية وإمكانات إدماجها في استراتيجيات التنمية الترابية المستدامة³. فالموضوع لا يقتصر على توصيف تاريخي، بل يستدعي تحليلًا متعدد المستويات يجمع بين الماضي والتحولات الراهنة⁴.

2- مجال الدراسة ونطاقها

تركز الدراسة على الزوايا ذات القيمة التراثية البارزة، سواء من حيث عمقها التاريخي أو تموقعها المجالي داخل فضاءات تعرف دينامية سياحية أو تحولات تنموية⁵. ولا تهدف إلى تقديم جرد شامل لجميع الزوايا المغربية، بل إلى تحليل نماذج دالة تسمح باستخلاص أنماط عامة قابلة للتفسير النظري⁶.

3- مصادر المعطيات

اعتمدت الدراسة على ثلاثة مستويات متكاملة من المصادر:

أ- المصادر الأرشيفية والتاريخية

- وثائق إدارية وتنظيمية
- تقارير أجنبية حول الزوايا
- مراسلات رسمية
- نصوص قانونية مرتبطة بتدبير الشأن الديني⁷

1 - مورييس أنجريس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرين (الجزائر: دار القصبة، 2004)، ص 35.

2 - عبد الله حمودي، الشيخ والمريد (الدار البيضاء: دار توبقال، 2001)، ص 18.

3 - محمد مدني، الحكامة الترابية بالمغرب (الرباط: منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية، 2015)، ص 42.

4 - عبد الإله بلقزيز، في الديمقراطية والمجتمع المدني (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)، ص 91.

5 - محمد حجي، الزاوية الدلائية (الرباط: دار المغرب للتأليف، 1964)، ص 12.

6 - Anthony Giddens, The Constitution of Society (Cambridge: Polity Press, 1984), p. 284.

7 - محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث (الرباط: دار الغرب الإسلامي، 1994)، ص 77.

وقد مكن هذا الرصيد من إعادة بناء الوظائف التاريخية للزوايا وتحولاتها المجالية¹.

ب- الأدبيات الأكاديمية والدراسات المقارنة

- دراسات حول الصوفية المغربية
 - أبحاث حول السياحة الثقافية
 - مقالات دولية حول إدارة التراث الديني
- وتم توظيفها لتأطير التحليل نظرياً ومقارنة الحالة المغربية بنماذج دولية مرجعية².

ت- الوثائق الاستراتيجية المعاصرة

- تقارير واستراتيجيات مرتبطة بالسياحة الثقافية
 - مخططات التنمية الجهوية
 - وثائق رسمية تتعلق بتثمين التراث³.
- وقد سمحت هذه الوثائق بتحليل موقع التراث الديني ضمن السياسات العمومية الراهنة⁴.

4- أدوات التحليل

اعتمد البحث على مجموعة من الأدوات التحليلية المتكاملة:

1-4- تحليل المضمون

لتفكيك الخطاب المرتبط بالزوايا في الوثائق التاريخية والسياسات الحديثة، ورصد التحولات في تمثل المؤسسة ووظيفتها⁵.

2-4- التحليل المجالي

لدراسة تموضع الزوايا داخل البنية الترايبية، وعلاقتها بالمراكز الحضرية والمسارات السياحية، ودرجة اندماجها في الشبكات التنموية⁶.

3-4- المقارنة المرجعية

من خلال استحضار نماذج دولية في تثمين التراث الديني، بهدف إبراز خصوصية الحالة المغربية وحدود قابلية نقل التجارب⁷.

¹ - Ernest Gellner, *Saints of the Atlas* (Chicago: University of Chicago Press, 1969), p. 54

² - أحمد بوحسن، السياحة الثقافية بالمغرب (الرباط: وزارة الثقافة، 2014)، ص 61

³ - وزارة السياحة، رؤية 2020 للسياحة بالمغرب (الرباط، 2010)، ص 9.

⁴ - محمد شقير، السياسات العمومية بالمغرب (الرباط: منشورات الزمن، 2018)، ص 133

⁵ - عبد الهادي بوطالب، المنهج في البحث الاجتماعي (الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 1998)، ص 58.

⁶ - Henri Lefebvre, *La production de l'espace* (Paris: Anthropos, 1974), p. 32

⁷ - UNESCO, *Tourism and Culture Synergies* (Paris, 2018), p. 22

4-4- المقاربة التأويلية

لفهم البعد الرمزي والروحي للمؤسسة الزاوية، وتحليل أثر هذا البعد في تحديد حدود التثمين السياحي¹.

5- حدود الدراسة

تتمثل حدود البحث في:

- الاختصار على الزوايا ذات الحضور التراثي البارز؛
 - اعتماد المصادر المتاحة دون إنحاز عمل ميداني موسع؛
 - توظيف مقارنة مرجعية غير موسعة².
- غير أن هذه الحدود لا تمس بصلاحيات النتائج، بل تحدد مجال اشتغالها وتؤطر قابلية تعميمها³.

6- التوقع المنهجي والإسهام العلمي

تكمن القيمة المنهجية للدراسة في الجمع بين:

- الأرشفة التاريخي والتحليل الترابي المعاصر؛
 - مقارنة الحكامة الترابية وتحليل التراث الديني؛
 - الربط بين البعد الرمزي للمؤسسة الزاوية وإمكانات إدماجها في الاقتصاد الثقافي⁴.
- وبذلك يسعى البحث إلى تقديم نموذج تحليلي يجيب عن الإشكالية المركزية، من خلال اختبار الفرضية القائلة بإمكانية إدماج الزوايا ضمن سياحة ثقافية مستدامة، شرط اعتماد حكامه تشاركية تراعي حساسية المجال الروحي⁵.

الفصل الثاني: الزوايا في التاريخ المغربي – البنية والوظائف المجالية

لا يمكن فهم إمكانات تثمين الزوايا ضمن السياحة الثقافية المعاصرة دون العودة إلى بنيتها التاريخية ووظائفها المجالية. فالزوايا لم تكن مجرد فضاءات للعبادة أو حلقات للذكر، بل شكلت عبر قرون طويلة مؤسسات متعددة الأبعاد أسهمت في تنظيم المجال المغربي وإعادة إنتاج التوازنات الاجتماعية والرمزية داخله⁶. ومن ثم فإن تحليلها بوصفها بني مجالية تاريخية يمثل خطوة أساسية لاختبار الفرضية المركزية للدراسة.

¹ – Paul Ricoeur, *Du texte à l'action* (Paris: Seuil, 1986), p. 183

² – مورييس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ص 72

³ – المرجع نفسه، ص 74.

⁴ – Pierre Bourdieu, *Langage et pouvoir symbolique* (Paris: Seuil, 2001), p. 210

⁵ – Elinor Ostrom, *Governing the Commons* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), p. 182

⁶ – محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث (الرباط: دار الغرب الإسلامي، 1994)، ص 65.

1- النشأة والسياق التاريخي: من التصوف الفردي إلى الشبكة المحلية

نشأت الزوايا في المغرب ضمن سياق تداخل بين التصوف السني والحاجات الاجتماعية للمجتمع الوسيط، حيث لعبت التحولات السياسية والقبلية دوراً في توسيع نطاق حضورها¹. ففي مرحلة اتسمت أحياناً بضعف الضبط المركزي وتعدد البنيات القبلية، ظهرت الحاجة إلى مؤسسات وسيطة توفر الاستقرار الرمزي والاجتماعي². وقد ارتبطت بدايات الزوايا بوظيفة تربوية وروحية، غير أنها سرعان ما تحولت إلى شبكات ممتدة ذات تأثير مجالي واضح³، مستفيدة من:

- الحاجة إلى الوساطة بين القبائل والسلطة المركزية⁴؛
 - دورها في نشر التعليم الديني وترسيخ المرجعية المذهبية المالكية⁵؛
 - قدرتها على بناء ولاءات رمزية عابرة للانتماءات المحلية الضيقة⁶.
- وهكذا انتقلت الزاوية من فضاء تعبدي محدود إلى مؤسسة منظمة للشبكات الاجتماعية، مما منحها حضوراً تريبياً واضحاً⁷.

2- الوظيفة الروحية وإنتاج الشرعية الرمزية

شكلت الزوايا فضاءً لإنتاج الشرعية الرمزية داخل المجتمع المغربي، سواء من خلال الارتباط بنسب شريف أو من خلال الكاريزما الروحية لمؤسسيها⁸. وقد أتاح لها هذا الرصيد الرمزي اكتساب مكانة اجتماعية متميزة، مكنتها من أداء أدوار الوساطة والتحكيم في النزاعات المحلية⁹.

ويمكن تحليل هذه الوظيفة في ضوء مفهوم الرأسمال الرمزي كما صاغه Pierre Bourdieu، إذ إن الشرعية التي راكمتها الزوايا لم تكن مادية بقدر ما كانت قائمة على الاعتراف الاجتماعي والذاكرة الجماعية¹⁰. وهذا الرصيد الرمزي هو ما منحها القدرة على التأثير في المجال، وجعلها عنصراً من عناصر إعادة توزيع السلطة الرمزية داخله¹¹.

3- الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية: من التكافل إلى الحركة المحلية

لم تقتصر أدوار الزوايا على التعليم الديني، بل اضطلعت بوظائف اجتماعية واقتصادية متعددة، من قبيل:

- 1 - محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والسياسي (الرباط: دار المغرب للتأليف، 1964)، ص 19.
- 2 - Ernest Gellner, *Saints of the Atlas* (Chicago: University of Chicago Press, 1969), p. 12.
- 3 - عبد الله حمودي، الشيخ والمريد (الدار البيضاء: دار توبقال، 2001)، ص 34.
- 4 - محمد ضريف، الحقل الديني بالمغرب (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 1999)، ص 54.
- 5 - أحمد التوفيق، التصوف السني في المغرب (الرباط: منشورات كلية الآداب، 1997)، ص 72.
- 6 - Jacques Berque, *Structures sociales du Haut Atlas* (Paris: PUF, 1955), p. 103.
- 7 - حمودي، الشيخ والمريد، ص 49.
- 8 - حجي، الزاوية الدلائية، ص 44.
- 9 - ضريف، الحقل الديني بالمغرب، ص 63.
- 10 - Pierre Bourdieu, *Langage et pouvoir symbolique* (Paris: Seuil, 2001), p. 170.
- 11 - مرجع نفسه، ص 17.

- الإيواء والإطعام للمسافرين وطلبة العلم؛
- إدارة الأوقاف وتنظيم مواردها؛
- تنظيم المواسم الدينية ذات الأبعاد الروحية والتجارية¹؛

وقد شكلت المواسم المرتبطة بالزوايا فضاءات للتبادل الاقتصادي والاجتماعي، وأسهمت في تنشيط الأسواق المحلية وربط المجالات القروية بالحركة التجارية الأوسع². كما لعب نظام الوقف دوراً محورياً في تأمين الاستقلال المالي النسبي للزوايا وضمان استمرارية وظائفها الاجتماعية³.

وقد أسهم هذا التداخل بين البعد الروحي والاقتصادي في جعل الزاوية مؤسسة مركزية داخل النسيج المحلي، لا سيما في المناطق القروية أو الهامشية⁴. ومن ثم يمكن اعتبارها تاريخياً مؤسسة متعددة الوظائف، تجمع بين الرعاية الروحية وتنشيط الاقتصاد المحلي، وهو ما يعزز أطروحة كونها بنية قابلة لإعادة التوظيف ضمن منطق الاقتصاد الثقافي المعاصر⁵.

4- البعد المجالي: الزاوية كفاعل في إنتاج المجال

من منظور مجالي، لا يمكن اختزال الزوايا في بعدها المعماري، بل ينبغي فهمها بوصفها عناصر فاعلة في إنتاج المجال⁶. فقد لعبت أدواراً أساسية في:

- تثبيت الاستقرار في المناطق الهامشية؛
- ربط الحواضر بالبوادي عبر شبكات الانتساب الروحي؛
- خلق مسارات للحركة الدينية والاقتصادية من خلال المواسم والزيارات⁷.

وفي ضوء تصور المجال باعتباره نتاجاً اجتماعياً، كما بلوره Henri Lefebvre، يمكن اعتبار الزوايا جزءاً من عملية هندسة المجال التقليدي المغربي، حيث ساهمت في تنظيم الفضاء، وتحديد مراكز الجذب، وإعادة تشكيل العلاقات بين المركز والأطراف⁸.

وعليه، فإن حضور الزوايا لم يكن رمزياً فقط، بل كان مجالياً ملموساً، يتجسد في شبكات الطرق، ومواسم الزيارة، وتوزيع الأوقاف، وأنماط الاستقرار⁹.

1 - المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ص 81.

2 - Gellner, Saints of the Atlas, p. 88

3 - محمد الكتاني، نظام الأحباس في المغرب (الرباط: وزارة الأوقاف، 1998)، ص 39

4 - Berque, Structures sociales du Haut Atlas, p. 211

5 - Françoise Benhamou, L'économie de la culture (Paris: La Découverte, 2012)

6 - Henri Lefebvre, La production de l'espace (Paris: Anthropos, 1974), p. 38

7 - حجي، الزاوية الدلائلية، ص 77.

8 - Lefebvre, La production de l'espace, p. 44

9 - المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ص 92.

تركيب تحليلي

يكشف هذا التحليل التاريخي أن الزوايا كانت مؤسسات مركبة تجمع بين الوظيفة الروحية، والدور الاجتماعي، والفاعلية الاقتصادية، والتأثير المجالي¹. ولم تكن مجرد فضاءات مقدسة منعزلة، بل عناصر دينامية في تشكيل المجال المغربي التقليدي.

ومن ثم، فإن أي مقارنة معاصرة لتثمين الزوايا ضمن السياحة الثقافية لا يمكن أن تنطلق من بعدها المعماري أو الطقوسي فقط، بل ينبغي أن تستحضر تاريخها كبنية مجالية منتجة للروابط الاجتماعية والرمزية². وهو ما يمهد للانتقال إلى تحليل التحولات التي عرفت هذه المؤسسة في السياق الحديث، ومدى قابلية إدماجها ضمن استراتيجيات التنمية الترابية الراهنة.

الفصل الثالث: التحولات المعاصرة وإعادة تعريف موقع الزوايا في المجال المغربي

إذا كان الفصل السابق قد أبرز الدور البنوي الذي اضطلعت به الزوايا في تنظيم المجال المغربي التقليدي، فإن هذا الفصل ينصرف إلى تحليل التحولات التي أعادت تعريف موقعها داخل المجال السياسي والديني والتراي المعاصر.

ويندرج هذا التحليل ضمن المقاربة التاريخية-المجالية المعتمدة في الدراسة، من خلال تتبع انتقال الزوايا من فاعل مجالي شبه مستقل إلى مؤسسة مؤطرة قانونياً داخل منظومة الدولة الحديثة. ويهدف هذا الفصل إلى فهم طبيعة هذا التحول، وحدوده، وانعكاساته على إمكانية إعادة إدماج الزوايا ضمن منطق التنمية الثقافية.

1- الزوايا وبناء الدولة الحديثة: إعادة ضبط الحقل الديني

عرفت الزوايا منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحولات عميقة ارتبطت بصعود الدولة المركزية الحديثة وإعادة تشكيل الحقل الديني.

فخلال فترة الحماية، خضعت الزوايا لآليات ضبط إداري وسياسي هدفت إلى:

- مراقبة مواردها الوقفية
- الحد من استقلاليتها المجالية
- تقليص أدوارها الواسطة التقليدية³.

وقد ترتب عن ذلك انتقال تدريجي من وضعية الفاعل الوسيط بين القبائل والسلطة المركزية إلى وضعية مؤسسة محكومة بمنطق الإدارة.

وبعد الاستقلال، تعزز هذا المسار في إطار بناء نموذج ديني رسمي قائم على توحيد المرجعية الدينية وتنظيمها مؤسساتياً. فأصبحت الزوايا جزءاً من الحقل الديني المؤطر والمهيكل ضمن إطار الدولة الوطنية⁴، ولم تعد تمارس وظائفها التاريخية بمعزل عن الإطار القانوني العام.

¹ - حمودي، الشيخ والمريد، ص 101.

² - Benhamou, L'économie de la culture, p. 74

³ - عبد الهادي التازي، الزاوية والدولة في المغرب، الرباط: دار نشر المعرفة، 1998، ص 112.

⁴ - محمد ضريف، الحقل الديني بالمغرب: الفاعلون والرهانات، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2004، ص 57.

يدل هذا التحول على انتقال من تعددية مجالية في إنتاج الشرعية إلى مركزية مؤسساتية في تدبيرها.

2- التحولات المجالية: تفكك المركزية التقليدية وإعادة تشكيل الحضور

أدى التحول العمراني والمهجرة القروية والتوسع الحضري إلى إعادة تشكيل البنية المجالية التي كانت الزوايا فاعلاً أساسياً فيها.

فقدت العديد من الزوايا:

- دورها في توفير الخدمات الاجتماعية
 - موقعها كمركز للتوازن القبلي
 - مكانتها كعقدة شبكية داخل المجال القروي¹
- غير أن هذا التراجع الوظيفي لم يؤدِّ إلى اختفائها، بل إلى تحول في طبيعة حضورها.

يمكن توصيف هذا التحول بانتقال الزوايا من:

مركز مجالي وظيفي إلى معلم رمزي داخل الذاكرة المحلية

فأصبحت تؤدي أدواراً رمزية مرتبطة بالمواسم والزيارات والهوية الروحية، بدل الأدوار التنظيمية المباشرة.

ومن منظور التحليل المجالي، يمكن القول إن الزوايا انتقلت من موقع "المنتج للمجال" إلى موقع "المكون للهوية المجالية"².

3- الزوايا في سياق السياسات الثقافية المعاصرة

شهدت العقود الأخيرة تحولا في السياسات العمومية نحو تتمين التراث الثقافي واللامادي، في إطار إعادة الاعتبار للهوية الروحية ضمن الاستراتيجية الوطنية.

في هذا السياق، أصبحت الزوايا موضوعاً لـ:

- برامج ترميم وصيانة
 - إدماج محدود ضمن مسارات ثقافية
 - دعم بعض المواسم ذات البعد الروحي³.
- غير أن هذا الإدماج ظل جزئياً وانتقائياً، إذ لم يُنَّ على تصور تراخي متكامل يربط بين:

- الحقل الديني
- التنمية المحلية

¹ - عبد الله حمودي، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد ححفة، الدار البيضاء: توبقال، 2001، ص 89.

² - Henri Lefebvre، إنتاج المجال، ترجمة فؤاد شعبان، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013، ص 41

³ - UNESCO، اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي، باريس، 2003، المادة 2.

• التخطيط السياحي

• الحكامة التراثية

كما أن التعامل معها في بعض الحالات انحصر في بعدها المعماري، دون استحضار بعدها الوظيفي والتاريخي. وهنا يتبين أن الإشكال لا يكمن في غياب الاهتمام، بل في غياب نموذج إدماج متوازن¹.

4- إشكالية إعادة التوضع: بين الحماية والوظيفة التنموية

تطرح إعادة إدماج الزوايا في المجال الثقافي والسياحي إشكالية مفاهيمية ومنهجية دقيقة: هل يتم التعامل معها كمواقع أثرية جامدة؟

أم كمؤسسات روحية حية؟

أم كمنتوج سياحي قابل للتسويق؟

إن المقاربة الأثرية الصرفة تؤدي إلى تجميدها داخل الماضي.

والمقاربة التسويقية الصرفة قد تؤدي إلى تسليع المقدس.

أما المقاربة الدينية الصرفة فقد تعزلها عن إمكاناتها التنموية².

ومن هنا تبرز الحاجة إلى مقاربة مركبة تتجاوز الثنائيات الاختزالية.

5- قراءة تركيبية: من الفاعل المجالي إلى الرأسمال الرمزي

يمكن تلخيص التحول الذي عرفته الزوايا في انتقالها من:

• فاعل مجالي تنظيمي مباشر إلى رأسمال رمزي قابل لإعادة التوظيف

غير أن هذا التحول لا يعني فقدانها القدرة على التأثير، بل تغير شكل هذا التأثير.

فالرمزية في السياق المعاصر تمثل مورداً استراتيجياً داخل الاقتصاد الثقافي، شريطة تأطيرها ضمن حكمة تحترم خصوصية المؤسسة.

وهذا ما يمهّد منطقاً للانتقال إلى الفصل الرابع، حيث يتم تحليل إمكان تحويل هذا الرأسمال الرمزي إلى عنصر قوة ضمن السياحة الثقافية، دون المساس بجوهره الروحي³.

الربط المنهجي بالإشكالية العامة

يساهم هذا الفصل في الإجابة المرحلية عن الإشكالية المركزية عبر بيان أن:

¹ - حسن أوريد، التراث والتنمية: أسئلة الهوية والتحول، الرباط: منشورات الزمن، 2010، ص 134.

² - David Harvey، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد سمير، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008، ص 298.

³ - Pierre Bourdieu، الهيمنة الذكورية، ترجمة سليم حداد، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 52.

- الزوايا لم تختفِ من المجال المغربي،
- لكنها أعادت تعريف موقعها داخله،
- وانتقلت من وظيفة تنظيمية إلى وظيفة رمزية،
- وهو انتقال يفتح إمكانات جديدة بدل أن يغلقها.

وبالتالي، فإن إعادة الإدماج ليست عملية إحياء لوظيفة منقرضة، بل إعادة توظيف لرأس مال رمزي قائم في سياق جديد. وهذا الاستنتاج يمثل الجسر التحليلي الضروري الذي يربط بين التحليل التاريخي (الفصل الثاني) والتحليل الاستشراقي المرتبط بالسياحة الثقافية (الفصل الرابع).

الفصل الرابع: السياحة الثقافية في المغرب — الإطار الاستراتيجي والرهانات التنموية

تندرج السياحة الثقافية في المغرب ضمن تحوّل بنيوي في السياسات العمومية السياحية، يهدف إلى تجاوز النموذج الأحادي القائم على السياحة الشاطئية الموسمية، نحو نموذج تنويعي قائم على تثمين الرأس المال الثقافي والتراخي. ويُعد هذا التحول جزءاً من إعادة تموقع المجال الوطني داخل الاقتصاد العالمي للثقافة، حيث أصبح التراث — المادي واللامادي — عنصراً استراتيجياً في بناء الجاذبية الترابية وتعزيز التنافسية السياحية. ويندرج تحليل هذا الفصل ضمن مقاربة تحليل السياسات العمومية المعتمدة في المنهجية، عبر تفكيك الإطار الاستراتيجي للسياحة الثقافية، وتحديد موقع التراث الديني داخله، تمهيداً لبحث إمكانية إدماج الزوايا ضمن هذا النسق التنموي.

1. تطور السياسات السياحية الوطنية: من الكم إلى التنوع النوعي

شهدت السياسات السياحية المغربية منذ مطلع الألفية الثالثة انتقالاً من منطق الرفع الكمي لعدد الوافدين إلى منطق التنوع النوعي للعرض السياحي.

وقد ارتكز هذا التحول على عدة توجهات استراتيجية، من أبرزها:

- تنويع المنتج السياحي
- تثمين المدن العتيقة والمجالات ذات القيمة التراثية
- إدماج البعد الثقافي ضمن منظومة الجاذبية
- تبني خطاب السياحة المستدامة
- غير أن تحليل الوثائق الاستراتيجية يُظهر أن التركيز انصب أساساً على:
- المعالم التاريخية الكبرى
- المواقع الأثرية

- الفضاءات المعمارية ذات الطابع الحضري

في حين ظل التراث الديني، وخاصة الزوايا، خارج رؤية مؤسساتية واضحة، رغم حضوره الرمزي القوي داخل البنية الثقافية الوطنية.

وهذا ما يكشف عن فجوة بين الرصيد التراثي المتاح والسياسات التثمين المعتمدة.

2. السياحة الثقافية كآلية لإعادة هيكلة المجال الترابي

لا تُفهم السياحة الثقافية فقط باعتبارها نشاطاً اقتصادياً، بل باعتبارها أداة لإعادة هيكلة المجال الترابي.

فمن خلال خلق مسارات ثقافية، وإعادة تأهيل المراكز التاريخية، وتحفيز المبادرات المحلية، تسهم السياحة الثقافية في:

- إعادة تنشيط المجالات الهامشية

- تثبيت الساكنة المحلية عبر خلق فرص الشغل

- دعم الاقتصاد الاجتماعي والتضامني

- تعزيز الصورة الرمزية للمجال

ومن منظور التحليل المحلي، تمثل السياحة الثقافية آلية لإعادة توزيع الجاذبية خارج المحاور الساحلية الكبرى.

في هذا السياق، يمكن للزوايا — خاصة في المجالات القروية وشبه الحضرية — أن تشكل نقاط ارتكاز داخل مسارات ثقافية متكاملة، بالنظر إلى:

- امتدادها التاريخي

- ارتباطها بالهوية المحلية

- تموقعها داخل شبكات مجالية تقليدية

غير أن هذا الإمكان يظل رهيناً بوجود تصور إدماج مؤطر.

3. المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية للسياحة الثقافية

تشير الأدبيات والدراسات المتخصصة في الاقتصاد السياحي إلى أن السياحة الثقافية تتميز بخصائص نوعية، من بينها:

- إطالة مدة إقامة السائح

- ارتفاع معدل الإنفاق مقارنة بالسياحة السريعة

- زيادة التفاعل مع النسيج المحلي

- ارتفاع الطلب على الخدمات ذات القيمة الثقافية

وتؤكد هذه المعطيات أن الاستثمار في التراث الثقافي لا يقتصر على البعد الرمزي، بل يحمل مردودية اقتصادية واجتماعية ملموسة.

وعليه، فإن إدماج الزوايا ضمن العرض الثقافي لا يُفهم باعتباره توظيفاً شكلياً للرمزية، بل إمكانية لإدخال مورد ثقافي ذي كثافة معنوية عالية داخل دورة اقتصادية مستدامة.

4. التحديات البنوية لإدماج التراث الديني

رغم الإمكانيات المتاحة، يواجه إدماج التراث الديني في السياحة الثقافية جملة من التحديات البنوية، من أبرزها:

أ. ضعف التنسيق المؤسساتي

تتدخل مسؤوليات عدة قطاعات (الثقافة، الأوقاف، السياحة، الجماعات الترابية) دون وجود آلية تنسيق واضحة.

ب. غياب رؤية خاصة بالتراث الديني

لا توجد استراتيجية مهيكلية تعالج خصوصية الفضاءات الروحية مقارنة بالمواقع الأثرية.

ج. حساسية المجال الروحي

يمثل البعد المقدس عنصراً حساساً، ما يفرض ضوابط دقيقة تمنع التسليع أو الاستغلال المفرط.

د. محدودية التكوين المتخصص

نقص الكفاءات القادرة على الجمع بين المعرفة التراثية والتدبير السياحي المستدام.

وتكشف هذه التحديات أن الإشكال لا يرتبط بندرة الإمكانيات، بل بغياب نموذج حكمة ملائم.

5. قراءة تركيبيّة: موقع الزوايا داخل الإطار الاستراتيجي

استناداً إلى التحليل السابق، يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1- السياحة الثقافية تمثل رافعة تنموية ذات أفق استراتيجي واضح.

2- التراث الديني حاضر رمزياً لكنه غير مدمج مؤسسياً بصورة كافية.

3- الزوايا تمتلك مقومات إدماج محتمل، لكنها تحتاج إلى تأطير خاص يحترم وظيفتها الروحية.

4- أي إدماج غير مضبوط قد يؤدي إلى اختلالات رمزية واجتماعية.

وهنا تتضح العلاقة المباشرة مع الإشكالية المركزية للمقال:

إن تحويل الزوايا من مؤسسة رمزية إلى عنصر داخل الاقتصاد الثقافي لا يمكن أن يتم إلا ضمن إطار استراتيجي متوازن يوفق بين الحماية والتأمين.

بناءً على ما سبق، ينتقل البحث في الفصل التالي إلى المستوى الأكثر ابتكاراً، حيث سيتم:

- تحليل الزوايا كمنتج سياحي ثقافي محتمل

- تفكيك مكونات رأسمالها الرمزي

- اقتراح نماذج إدماج متدرجة

- بناء تصور حكامه يضمن التوازن بين البعد الروحي والتنمية الترابية

ويمثل هذا الفصل تنويعاً للمسار التحليلي الممتد من التاريخ إلى السياسات العمومية، ومن التحليل المجالي إلى الرؤية الاستشرافية، في انسجام تام مع المنهجية والإشكالية المعلنة في مقدمة الدراسة.

الفصل الخامس: الزوايا كمنتج سياحي ثقافي — الإمكانيات وحدود التحويل

يركز هذا الفصل على الإمكانيات المعاصرة للزوايا المغربية باعتبارها موارد ثقافية قابلة للتحويل ضمن قطاع السياحة الثقافية، دون المساس بوظيفتها الروحية أو الرمزية. ويستند التحليل إلى:

- الرأسمال الرمزي المتراكم للزوايا

- الوظائف المجالية والتاريخية

- القابلية التفاعلية مع الزائر

ويستهدف هذا الفصل الإجابة على الإشكالية المركزية للمقال: كيف يمكن إدماج الزوايا المغربية ضمن السياحة الثقافية بطريقة تحقق تمييزاً مستداماً للتراث الديني دون الإخلال بوظيفتها الروحية؟

1- الإمكانيات التراثية للزوايا

أ. البعد المعماري

تتميز الزوايا بطابع معماري تقليدي يعكس العمارة المغربية الصوفية، ويشمل:

- المخططات الهندسية المستمدة من الطراز المغربي الأصيل

- الزخرفة الرمزية والنقوش الصوفية

- ارتباطها بالمجالات القروية والمدن العتيقة

ويشكل هذا البعد نقطة جذب سياحية لمهتمين بالتراث العمراني والهندسة الثقافية.

ب. البعد التاريخي

تحمل الزوايا قيمة تاريخية من خلال:

- ارتباطها بشخصيات صوفية ذات تأثير مجتمعي وروحي

- مساهمتها في الأحداث التاريخية المفصلية في المغرب

- حضورها في الذاكرة الجماعية والتراث الوطني
- ويؤكد هذا البعد على أن الزوايا ليست مجرد معالم مادية، بل مراكز تاريخية حية يمكن إدماجها ضمن سياحة معرفية وتجريبية.

ج. البعد اللامادي

يمثل التراث غير المادي أهم أبعاد جاذبية الزوايا، ويشمل:

- الطقوس الصوفية والمواسم
- الإنشاد والمديح
- شبكات الانتماء الروحي

ويتيح هذا البعد للزائر تجربة مباشرة للروحانية، بما يتوافق مع مفهوم التجربة السياحية القائمة على التفاعل¹ (Experience-based Cultural Tourism).

2- الرأسمال الرمزي وإشكالية التسليع

تمتلك الزوايا رأسمالاً رمزياً متراكماً عبر قرون، يتجسد في:

- الشرعية الروحية
- النسب الشريف والارتباط بالمجتمع المحلي
- المكانة الاجتماعية والاحترام الرمزي
- الذاكرة الجماعية للمجالات المحيطة
- لكن تحويل هذا الرأسمال إلى منتج سياحي يطرح تحدياً مفاده

"تسليع المقدس" (Commodification of the Sacred)

ولتجنب هذا الانحراف، يجب تحقيق توازن دقيق بين:

- تمكين الزائر من تجربة البعد الروحي والثقافي
 - احترام الخصوصية الطقوسية
 - منع الاستغلال التجاري المفرط
- وهذا يقتضي وضع إطار إدماعي متكامل يربط بين الحماية الرمزية والإمكانات الاقتصادية².

¹ - UNESCO، اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي، باريس، 2003، المادة 2.

² - David Harvey، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد سمير، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008، ص 298.

3- إدماج الزوايا ضمن المسارات السياحية

يمكن تصنيف نماذج إدماج الزوايا في السياحة الثقافية إلى ثلاثة مسارات متكاملة:

أ. المسارات التاريخية الصوفية

- ربط عدة زوايا ضمن خط سياحي موضوعاتي
- إبراز تاريخ التصوف المغربي وتطوره عبر القرون
- تقديم رؤية سياحية معرفية تركز على السياق التاريخي والروحي

ب. السياحة الروحية التأملية

- استقطاب الزوار الباحثين عن تجربة روحية أو صوفية
- التركيز على الطقوس والمواسم والأنشطة التأملية
- الجمع بين التعلم الروحي والثقافي

ج. السياحة الثقافية المجالية

إدماج الزاوية ضمن مسار ثقافي أوسع يشمل:

- المعمار التقليدي
- الصناعات التقليدية
- الموروث الموسيقي والطعام المحلي

هذا النمط يتطلب تصوراً ترايياً متكاملاً وليس مبادرات معزولة، مما يربط بين الزوايا والمجالات المحيطة بها¹.

4- الشروط المؤسسية لنجاح الإدماج

نجاح تأمين الزوايا سياحياً يستلزم شروطاً مؤسسية واضحة:

1. إطار قانوني تنظيمي: يحدد شروط الزيارة والسلوكيات المسموح بها داخل الفضاء الديني.
2. إشراك القائمين على الزوايا: ضمان مشاركتهم في تصميم البرامج السياحية واتخاذ القرارات المتعلقة بالفضاء.
3. ميثاق أخلاقي للزائر: تنظيم العلاقة بين الزائر والفضاء الروحي، مع احترام الرمزية الطقوسية.
4. تكوين مرشدين متخصصين: قادرين على تقديم معلومات ثقافية وروحية دقيقة للزوار.

¹ – Greg Richards, Cultural Tourism: Global and Local Perspectives, London: Routledge, 2007, p. 3.

5. رقمنة المحتوى التعريفي: إنتاج موارد رقمية تبرز الرصيد الرمزي والتاريخي دون المساس بالقدسية¹.

5-الفرضيات التطبيقية للتحويل

استناداً إلى المعطيات النظرية والمنهجية، يمكن صياغة نموذج أولي لإدماج الزوايا في السياحة الثقافية على أساس:

- **الرأسمال الرمزي:** الحفاظ على الشرعية الروحية والمكانة الاجتماعية
- **الإمكانات المادية:** استخدام البنية المعمارية والتراث اللامادي
- **الحكامة الترابية:** مشاركة الفاعلين المحليين والدولة والجمعيات الثقافية
- **الإطار المؤسسي:** قوانين وسياسات واضحة تحمي الفضاء الروحي
- **الاستدامة الاقتصادية:** دعم الاقتصاد المحلي دون الاستغلال المفرط

الخلاصة التحليلية للفصل

يمكن تلخيص ما تم التوصل إليه في الفصل الخامس في النقاط التالية:

- 1- الزوايا المغربية تمتلك مقومات متعددة الأبعاد تجعلها قابلة للإدماج في السياحة الثقافية.
- 2- التحويل الناجح يتطلب توازناً بين الرأسمال الرمزي والتنمية الاقتصادية.
- 3- وجود إطار مؤسسي وحكامة تشاركية يمثل شرطاً حاسماً للحماية والتثمين المستدام.
- 4- إدماج الزوايا لا يقتصر على إدراجها في مسارات سياحية، بل تحويلها إلى رافعة ثقافية ومجالية ضمن استراتيجيات السياحة الثقافية المغربية.

الفصل السادس: التحديات والمعوقات البنيوية لإدماج الزوايا في السياحة الثقافية

رغم الإمكانات التراثية والرمزية، يظل إدماج الزوايا في القطاع السياحي عملية معقدة تواجه تحديات بنيوية متعددة، ترتبط بالأبعاد القانونية والاجتماعية والاقتصادية والرمزية. ويعد تحليل هذه التحديات ضرورة لاستنباط نموذج مستدام يوازن بين الحماية والتثمين.

1- التحديات القانونية

- **غياب إطار تنظيمي خاص بالتراث الديني الحي:** معظم التشريعات المغربية تركز على حماية المعالم التاريخية المادية، بينما يغيب نص محدد يحمي المؤسسات الدينية الحية.
- **تداخل الاختصاصات:** تتقاطع مسؤوليات وزارة الثقافة، وزارة الأوقاف، الجماعات الترابية، والقطاع السياحي، ما يؤدي إلى تضارب السياسات أو ضعف التنسيق.

¹ - محمد الأشعري، الثقافة والتنمية في المغرب، الرباط: منشورات الزمن، 2012، ص 77.

- إشكالية الملكية والصاية: بعض الزوايا لا تزال تحت ملكية خاصة أو تحت وصاية مؤسسات دينية، ما يحد من إمكان تطويرها سياحياً دون اتفاقات قانونية دقيقة¹.

2- التحديات الاجتماعية

- التخوف من المساس بالمقدس: يرفض بعض الفاعلين المحليين أو القائمين على الزوايا أي تدخل قد يمس الطابع الروحي للمؤسسة.

- ضعف الوعي بأهمية التثمين المستدام: غياب ثقافة إدارة التراث الديني في سياق سياحة ثقافية متوازنة.
- حساسية العلاقة بين الزائر والمجتمع المحلي: زيارة الزوار قد تؤدي إلى توتر إذا لم يتم وضع ضوابط دقيقة.

3- التحديات الاقتصادية

- محدودية التمويل: التمويلات العمومية والخاصة غالباً ما تكون غير كافية لدعم مشاريع تأهيل الزوايا.
- غياب نموذج استثماري واضح: لا توجد خطة واضحة لدمج الزوايا ضمن التسويق السياحي الوطني أو المحلي.
- ضعف الربط بالسياحة المستدامة: معظم المشاريع الفردية تركز على التسويق السياحي قصير المدى دون مراعاة البعد الاجتماعي والروحي.

4- التحديات الرمزية والثقافية

- خطر فقدان الأصالة: إدماج الزوايا في السياحة بدون إطار مؤسسي قد يؤدي إلى تراجع قيمة المكان الرمزية.
- اختزال البعد الروحي في بعد فولكلوري: تحويل الطقوس إلى عروض ترفيهية يقلل من الأبعاد الدينية والثقافية.
- ضرورة التوازن بين الانفتاح والحفاظ على الهوية: أي تدخل سياحي يجب أن يحترم حساسية الفضاء الديني والذاكرة الجماعية².

الفصل السابع: نحو نموذج مقترح لتثمين مستدام للزوايا

استناداً إلى التحليل التاريخي، المجالي، والسياسي، يقترح هذا البحث نموذجاً متكاملًا لإدماج الزوايا في السياحة الثقافية المستدامة، يجمع بين الرأسمال الرمزي والوظائف المجالية والحكامة التشاركية.

1- الحكامة الترابية التشاركية

يقوم النموذج على إشراك جميع الفاعلين الأساسيين في إدارة الزوايا ضمن السياحة الثقافية:

- الدولة: وضع السياسات القانونية والتخطيطية

¹ - قانون رقم 22.80 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعلاقات، الجريدة الرسمية للمملكة المغربية، 1980، المادة 1.

2 - Clifford Geertz، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 112

- الجماعات الترابية: دعم المشاريع المحلية وضمان التوافق المجالي
 - القائمون على الزوايا: حماية الوظائف الروحية وإشراف على الطقوس
 - المجتمع المدني والجمعيات الثقافية: تعزيز الوعي والمساهمة في إدارة الأنشطة
 - الفاعلون السياحيون: تطوير المنتجات والخدمات السياحية بشكل مسؤول
- ويضمن هذا النموذج دمج البعد الرمزي مع التنمية الاقتصادية المحلية.

2- ميثاق أخلاقي للسياحة الروحية

يتضمن الميثاق البنود التالية:

- احترام الطقوس والمواعيد المحددة للزيارة
 - تحديد أوقات وأماكن الزيارة لتجنب الإزعاج الروحي
 - منع الأنشطة غير الملائمة أو الاستغلال التجاري المفرط
 - توعية الزوار بالبعد الرمزي والثقافي للمكان
- ويشكل الميثاق أداة لضمان التوازن بين الفضاء الروحي والتجربة السياحية.

3- الرقمنة والتمين الذكي

يستند النموذج إلى أدوات رقمية مبتكرة تشمل:

- منصات تعريفية رقمية بالمواقع والزوايا
 - جولات افتراضية لتسهيل الوصول للمعرفة دون التعدي على الفضاء الفعلي
 - توثيق رقمي للتراث اللامادي (الطقوس، المواسم، الإنشاد)
 - استخدام الوسائط الرقمية للترويج للسياحة الروحية بشكل مسؤول
- ويتيح هذا التكامل التكنولوجي تحقيق تمين مستدام ذكي يحمي الرمزية.

4- مؤشرات التقييم والاستدامة

يجب تطوير مؤشرات لقياس أثر إدماج الزوايا، تشمل:

- عدد الزوار الفعليين ونسبة نموهم
- أثر اقتصادي محلي (فرص الشغل، دعم الصناعات التقليدية)
- مستوى رضا الفاعلين المحليين والقائمين على الزوايا

- المحافظة على الطقوس والممارسات الروحية
- وتمثل هذه المؤشرات آلية لرصد التوازن بين التثمين والتنمية المستدامة.

الخلاصة العامة

تُظهر هذه الدراسة، بعد تحليلها التاريخي والمجالي والسياسي، أن الزوايا المغربية ليست مجرد مواقع دينية أو معمارية، بل مؤسسات مجالية متعددة الوظائف لعبت دوراً محورياً في تنظيم المجتمع، إنتاج الشرعية الرمزية، وإعادة توزيع الموارد والسلطة داخل المجال التقليدي المغربي. وقد بينت الفصول السابقة أن هذه المؤسسات امتلكت منذ نشأتها:

1. **البعد التاريخي والثقافي:** ارتباط الزوايا بشخصيات صوفية مؤثرة، ومساهمتها في التعليم الديني، وبناء الذاكرة الجماعية، ما جعلها رصيداً ثقافياً وروحياً فريداً.

2. **البعد المجالي والتنظيمي:** دور الزوايا في تثبيت الاستقرار بالمناطق الهامشية، ربط الحواضر بالبوادي، وخلق مسارات حركية اقتصادية وثقافية.

3. **الرأسمال الرمزي:** الشرعية الروحية، المكانة الاجتماعية، والذاكرة الجماعية التي تمنح الزوايا قيمة فريدة في الاقتصاد الثقافي.

مع التحولات المعاصرة، تحولت الزوايا من فاعل مجالي شبه مستقل إلى مؤسسة رمزية تخضع للضبط القانوني والمؤسسي، ما أعاد تحديد موقعها ضمن المجال المغربي، خاصة مع التمددين السريع وإعادة هيكلة الحقل الديني. وفي هذا الإطار، تبين أن:

- الزوايا حافظت على رمزيتها حتى مع تراجع الوظائف الاجتماعية المباشرة.
- السياسات العمومية للمغرب ركزت على التثمين الجزئي، مثل ترميم بعض الزوايا وإدماجها ضمن مسارات ثقافية محدودة، دون اعتماد رؤية استراتيجية شاملة.
- التحولات الاقتصادية والاجتماعية طرحت تحديات قانونية، اجتماعية، اقتصادية، ورمزية تعيق الإدماج الكامل للزوايا في السياحة الثقافية.

من خلال تحليل الإمكانيات والقيود، يظهر أن تثمين الزوايا سياحياً بشكل مستدام ممكن، لكنه يتطلب:

1. **حكاية تشاركية مندمجة:** إشراك الدولة، الجماعات الترابية، القائمين على الزوايا، المجتمع المدني، والفاعلين السياحيين.
 2. **ميثاق أخلاقي للسياحة الروحية** يحمي الطقوس ويحدد أوقات الزيارة ويحافظ على الرمزية.
 3. **الرقمنة والتثمين الذكي:** إنشاء منصات تعريفية وجولات افتراضية تحفظ البعد الرمزي وتتيح تجربة سياحية متكاملة.
 4. **مؤشرات تقييم دقيقة** لمتابعة الأثر الاقتصادي، الاجتماعي، والثقافي، وضمان التوازن بين التثمين والحماية.
- تستخلص الدراسة أن الرهان الرئيسي لا يكمن في تحويل الزوايا إلى مواقع سياحية تقليدية، بل في إعادة التفكير في موقعها داخل الاقتصاد الثقافي الوطني، بحيث تصبح:

- عنصر جذب سياحي متكامل قائم على التجربة الثقافية والروحية.
- رافعة للتنمية الترابية المحلية عبر دعم الصناعات التقليدية، خلق فرص الشغل، وتعزيز التماسك الاجتماعي.

• حافظاً على الهوية والوظيفة الروحية، عبر احترام الطقوس والبعد الرمزي.

وبالتالي، فإن الزوايا المغربية يمكن أن تشكل نموذجاً مستداماً للسياحة الثقافية الدينية في العالم الإسلامي والمتوسطي، يجمع بين:

- الحفاظ على التراث الروحي والثقافي.
 - الاستفادة الاقتصادية والاجتماعية.
 - الانفتاح على السياحة الترفيهية والوعائية.
- إن هذه الدراسة تقدم إسهاماً أكاديمياً متكاملًا من خلال ربط التحليل التاريخي بالمجالي والسياسات المعاصرة وإمكانيات التثمين السياحي، ما يجعل الزوايا مثالاً حياً لكيفية تحويل المؤسسات الدينية التاريخية إلى رصيد تنموي مستدام دون فقدان جوهرها الرمزي والروحي.

تؤكد الدراسة على أن الزوايا المغربية تمثل رصيذاً تراثياً ورمزياً فريداً، يمكن تحويله إلى عنصر محوري في السياحة الثقافية، شريطة اعتماد:

- مقارنة متوازنة تحترم الحساسية الدينية والرمزية
 - حكاما تشاركية تشمل الدولة، الفاعلين المحليين، والمجتمع المدني
 - استراتيجيات استدامة تربط بين الرصيد الرمزي والبعد الاقتصادي والاجتماعي
- والرهان لا يقتصر على تحويل الزوايا إلى مواقع سياحية فحسب، بل على إعادة تحديد موقعها في الاقتصاد الثقافي الوطني بما يحقق التنمية المحلية المسؤولة.

1- الاستنتاجات الرئيسية

1. الزوايا مؤسسات مجالية تاريخية متعددة الوظائف.
2. تمتلك رأسمالاً رمزياً متراكماً عبر قرون قابلاً للتثمين.
3. إدماجها السياحي يتطلب حكاما مندمجة وتشاركية.
4. المقاربة التشاركية والاستراتيجية هي الأكثر توافقاً مع التنمية المستدامة.

2- التوصيات العلمية

1. إعداد استراتيجية وطنية لتثمين التراث الديني.
2. إدماج الزوايا ضمن المخططات الجهوية للتنمية السياحية.
3. تطوير برامج تكوين متخصصة في السياحة الروحية والثقافية.

4. دعم البحث الأكاديمي التطبيقي في مجالات التراث والثقافة الدينية.

3- المشاكل والمعوقات

- حساسية البعد الديني والرمزي.
- ضعف التنسيق المؤسسي بين القطاعات المختلفة.
- غياب تصور استراتيجي شامل لإدماج التراث الديني في السياسات السياحية.

4- آفاق البحث المستقبلية

1. دراسات ميدانية حول تجربة الزوار وتأثيرها على الإدماج الثقافي.
2. المقارنة مع تجارب دولية ناجحة (تركيا، السنغال) لإثراء النماذج.
3. قياس الأثر الاقتصادي والاجتماعي الفعلي لإدماج الزوايا.